مقارنات خفيفة بين متنبي المشرق ومتنبي المغرب

الاستاذ ابو القاسم محمد كرو

للمتنبي شهرة عريقة وصيت عريض منذ كان يعيش في النصف الاول من القرن الرابع الهجرى الى اليوم ، فقد كان ولا يزال «يملأ الدنيا ويشغل الناس» وليس الحديث عنه في تونس وبعض الاقطار العربية الاخرى خلال عام 1965 سوى دليل جديد على أنه ما زال ملء السمع والفكر والقلم في دنيا الادب العربي .

ولكن الناس الذين يذكرون في كل مناسبة وبلا مناسبة اسم المتنبي ويتلمظون بحكمه وأشعاره قلما يذكرون معه شاعرا آخر ، عاصره وتشابه معه في جوانب كثيرة من الحياة والشعر والملابسات . ولعل عيب هذا الشاعر الوحيد هو أن « مطلعه كان في الغرب » !!

والغريب ان النقاد القدماء قد فطنوا الى وجوه التشابه بين الشاعرين فاطلقوا على شاعر المغرب لقب (المتنبي) ولكنهم لم يزيدوا عن ذلك شيئا ... فلم يولوا عنايتهم بشعر وحياة (متنبي المغرب) كما فعلوا مع متنبي المشرق !!

ولئن كان (المكان الغربي) سببا في هذا الاهمال فانه لم يكن ـ في نظري ـ بالسبب المباشر ، وانما سببه ما ملأ شعر متنبي المغرب من الدعوة الدينية المخالفة لمذهب معظم مؤرخي الادب ونقاده في العصور السالفة .

ولا يتسع المجال هنا لان نلم بحياة الرجلين وجوانب التشابه والاختلاف بينهما ، لذلك اكتفي هنا بوضع خطوط عامة عن حياتهما وملاحظات سريعة عن عناصر التشابه والاختلاف بين الشاعرين ، آملا أن تكون هذه الكلمة بداية حافزة لدراسات او ابحاث أخرى واسعة تدور حول الشاعرين ان بالمقارنة او التعريف ، وخاصة حول شاعرنا المغربي المنسي المغمور .

حياة أبي الطيب المتنبي

حياة المتنبي معروفة ، فقد ولد بالكوفة عام 303 هـ 915 م وانتقل وهو صغير بين شيوخ القبائل وحكام المناطق الصغار يستعطي بشعره ويتعيش منه ... وبلغ قمة الشهرة الادبية في بلاط سيف الدولة الحمداني كما خلد الشاعر أعمال هذا الامير وجهاده في قصائد كثيرة ... وانتقل المتنبي الى كافور في مصر ، فمدحه بأشعار غريبة كقوله فيه :

أبا المسك هل في الكأس فضل انا له
فاني أغني منذ حين وتشرب ؟!

ثم هرب منه وهجاه هجاء لاذعا عنيفا ، ومما قاله فيه :

صار الخصي امام الآبقين بها
فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ
لو أنه في ثياب الحر مولود
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن
يسيء بي فيه عبد وهو محمود
جوعان يأكل من زادي ويمسكني
حتى يقال : (عظيم القدر مقصود)

ثم طاف أماكن عديدة مدح فيها كل من اغدق عليه

المال طمعا فى ثنائه او خوفا من سلاطة هجائه ، وانتهى آخر الامر الى شيراز من بلاد فارس حيث مـــدح أمراء العجم الذين زعم انه يثير حمية العرب للتخلص مـــن سيطرتهم .

واثناء عودته الى بغداد قتله جماعة من الاعـراب – فى خبر يطول – طمعا فى أمواله او انتقاما من فحش هجائه لبعضهم ، وكان مقتله فى 28 رمضان عام 354 هـ الموافق 27 – 9 965 وبذلك يكون قد عاش خمسين سنة ميلادية وهو عمر قصير نسبيا .

وقد امتاز شعره بقوة الاسلوب وكثرة الحكم ورنين النغم . كما امتلأ بالغرور والتعالى ومدح النفس ، ولعل هذه الخصائص بالذات كانت من أهم بواعث الاهتمام به وبصاحبه منذ القدم .

حياة متنبى المغرب

أما متنبى المغرب فهو : أبو القاسم محمد بن هانىء المهلبى الازدى المعروف بابن هانىء الاندلسى او المغربى تمييزا له عن ابن هانىء البغدادى المعروف بأبى نواس .

أصل ابن هانىء من المهدية بتونس ، فقد هاجر أبوه منها او من احدى قراها الى الاندلس ، وهناك ولد محمد عام 320 هـ (1) 932 م ، وبدأ حياته فى بلاط حاكـم اشبيلية الذى خاف عليه من رعاياه حين نقموا عليـه مجونه وفلسفته العقائدية ، فنصحه بترك المدينة ريثما يهدأ أهلها . وكانت الدولة الفاطمية فى تونس قـد بلغت أوج عظمتها ... فاجتاز ابن هانىء المضيق قاصدا القيروان ، وفى المغرب الاقصى عام 347 هـ صادف هناك القائد جوهر الصقلى فمدحه بوصفه قائدا فاطميا مدفوعا الى ذلك بعقيدته الشيعية التى ورثها عن ابيه ، والتى من أجلها اضطهد فى الاندلس :

ولمـــا التقت أسيافها ورماحهـــا
شراعا ، وقد سدت على المسالك
أجزت عليها ، عابـــرا ، وتركتها
كأن المنايا ، تحت جنبى ، أرائك
وما نقموا الا قديـــم تشيعـــى
فنجى هزبـــرا شـــده المتدارك

فلما صادف جوهرا فى طريقـه الى المعز بادر الى مدحه باعتباره سيفا من سيوف الدعوة ، لا طمعا فـى عطائه . يدلك على ذلك أنه لم يغضب على جوهر حـين قابل مدحه الفخم بعطاء زهيد غير لائق ، بل ظل يكبره ويعظم شأنه الى آخر أيام حياته . وهذا جانب مهم من أخلاقه يختلف فيه تماما عن المتنبى الذى كان بمثابـة بائع متجول يتبيع الشعر لمن يدفع الثمن الاعلى ... والا انقلب هاجيا وحث جواده الى مكان آخر وممدوح جديد ... فهو فى هذا كبشار الذى يقول :

فان تعطنى أفرغ عليـــك مدائحى
وان تأب ، لم يضرب على سداد !
ركابى على حرف ، وقلبى مشيـــع
ومالى بأرض الباخلين بـلاد !

ثم انتقل ابن هانىء الى (المحمدية) بالجزائر حيث أقام مدة لدى اميرها جعفر ابن حمدون ، واخيرا استقر فى بلاط المعز الفاطمى بالقيروان – مطمحه الاعلى وهدف حياته – حيث أنشد فيه نصف ديوانه وانشد النصف الآخر فى رجال دولته السياسيين والعسكريين .

ويرجح أنه اتصل بالمعز حوالى عام 354 هـ فنال لدى المعز كل تقدير واعجاب ورعاية ، وبز بشعره كـــل شعراء البلاط ، وأصبح شاعر الدولة الرسمى .

ولما انتقل المعز الى مصر بعد فتحها . وبناء مدينة القاهرة ، خرج الشاعر معه عام 361 هـ . وطالت الرحلة فى الطريق بضعة شهور ، فلما وصل المعز الى حدود مصر استأذنه الشاعر فى العـودة الى القيروان لجلب عياله وماله فأذن له ، وفى برقة اثناء عودته وجد مقتولا فى 23 رجب 362 هـ 16 – 5 973 م تقريبا ، وبذلـك يكون قد عاش أقل مـن المتنبى بتسع سنين . ولكـن انتاج ابن هانىء الشعرى أكثر كما من المتنبى ، وان كان أقل منه شهرة لاسباب سبق ذكرها .

فلما بلغ نعيه الى المعز فى القاهرة ، تأسف لموته ، وقال : (انا لله وانا اليه راجعون ، لقد كنـا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك) .

شعر ابن هـــانى

أما من الناحية الفنية فان شعر المتنبى أكثر جاذبية وأثرا فى النفس ، الا أن شعر ابن هـانىء يطـاوله أسلوبا وقد يفوقه جزالة وسبكا وطول نفس ، ولكنه فى بعض قصائده يحتاج المرء الى كد عقلى لفهمه .

وابن هانىء أقوى واقـدر الشعراء القدمـاء على التشبيه والتمثيل ، وهذا « فون كريمر » المستشرق

---

(1) فى رواية أخرى عام 326 ، ولكنا نرجح 320 عن ابن هانىء . سلسلة « اعلام المغرب العربى » .

كما بسطنا القول بالحجة فى بحث مطول سينشر قريبا

الالمانى يصفه بانه «قوى البيان ، كثير التمثيل ، جيد الالفاظ ، حسن الوصف ، لا يقدر على مسايرته فى هذا الوصف الا القليل» (2)

ويلخص الدكتور احمد أمين خصائص ابن هانىء الشعرية بقوله :

« والحق ان شعره – اى ابن هانىء – فخم ضخم مملوء بالقعقعة ، جاهلى الاسلوب ، يشبه فى ذلك المتنبى ، غير أن المتنبى ادق معنى وابن هانىء أطول نفسا . ومن قرأ شعره يرى أن فيه خصائص :

1 – أن من فهم كلامه بعد التعب تلذذ من شعره ، وأعجب بفنه .

2 – طول نفسه ، فهو يتعرض للمعنى حتى يصفيه شأن ابن الرومى لولا كثرة غريبه .

3 – عنايته بالمقابلة بين الشطر الاول والشطر الثانى فى كثير من أبياته .

4 – شبه شعره بالشعر الجاهلى فى القوة ، ومتانة السبك وقدرة استخدام الالفاظ وبساطة المعانى عند فهمها .

5 – اتصال شعره اتصالا كبيرا بالدين ، اذ كانت دعوته فاطمية متأثرة بتعاليمهم ، وكل الاصطلاحات الاسماعيلية مبثوثة فى ديوانه» (3)

تهمة التقليد

وقد اتهم ابن هانىء بانه يحاكى المتنبى ويقلده فى أشعاره ، وهى تهمة باطلة لا تستند الى حجة تاريخية او علمية . واذا كانت بعض المعانى تاتى متشابهة او متقاربة فى أشعارهما فلا يعنى هذا أن شاعرنا يقلد شاعر الكوفة وانما بواعث القول وآثار الثقافة – وخاصة منها الشعر الجاهلى – فيهما متشابهة. ولدينا من الادلة ما يقطع بأن ابن هانىء لم يطلع على ديوان المتنبى الا فى زمن متأخر ، وبعد بلوغه قمة شاعريته ونضجه . (4)

عناصر التشابه

وهذا التشابه فى بعض الابيات او المعانى يعود الى معطيات أخرى غير التأثر الشخصى . وقد أمكننى أن اجمع خيوط هذا التشابه الاوسع مدى ، والتى يلتقى فيها الشاعران التقاء واضحا وشاملا لحياتهما وأشعارهما بوجه عام ، فى النقاط التالية :

1) الحياة القصيرة – نسبيا – التى عاشها الرجلان لا سيما ابن هانىء (41 سنة) .

2) غلبة المديح على شعرهما .

3) تخصيص معظم أشعارهما مدائح للامراء والحكام .

4) عيشهما فى ظل العروش ، وعدم استطاعتهما الحياة خارج البلاط .

5) شدة الحساسية وقوة تأثير العقل عند الشاعرين .

6) عزة النفس وترفعها عن التذلل والتزلف الخسيس الى الممدوحين .

7) الغلو والمبالغة فى وصف الممدوح .

8) استلهام القرآن والشعر الجاهلى . ويظهر أثر هذين خاصة فى قوة التعبير وجزالة الالفاظ ثم فى تضمين بعض الآيات او معانيها .

9) شعرهما سجل حافل لتاريخ البطولة والجهاد وللامجاد العربية فى المغرب والمشرق ، فقد صور ابن هانىء جهاد المعز الفاطمى وبطولات جيشه فى البر والبحر ، وحروبه الظافرة فى افريقيا وآسيا وأوربا .

وكذلك فعل المتنبى مع جهاد سيف الدولة وصموده الشجاع ضد الروم .

10) حماسة ابن هانىء للعقيدة الفاطمية – الاسماعيلية – وصدوره عنها فى جميع مدائحه – لا سيما قصائده فى المعز باعتباره ملكا عربيا عليه واجب تحرير العرب من الحكم الاعجمى وتوحيد المسلمين فى خلافة شيعية عادلة .

والمتنبى – الذى له صلة عقائدية واضحة بالاسماعيلية عن طريق القرامطة – شبيه بابن هانىء فى حماسته هذه ، اذ هو يتحمس للعروبة ويصدر عنها فى مدائحه ليسيف الدولة وكان يعقد الآمال عليه فى تحرير العرب من الاعاجم وحمايتهم من الروم ، وتوحيدهم فى ظل عرش عربى يكون له فيه نصيب ومكانة ؟!

11) تألمهما – الظاهر فى اشعارهما – مما أصاب العرب خاصة والعالم الاسلامى عامة من تشتت وانقسام من ناحية ، وخروج كثير من اطرافه عن حكم العرب من ناحية أخرى .

وفى هذا يقول ابن هانىء :

---

(2) ظهر الاسلام – لاحمد امين ج 3 ص 337 .

(3) نفس المرجع والصفحة .

(4) انظر بلاشير فى كتابه : «ديوان المتنبى فى العالم العربى» الترجمة العربية ص 41–55

سوام رعاع بين جهل وحيرة
وملك مضاع بين ترك وديلم

ويقول المتنبي :

وانما الناس بالملوك وما
تفلح عرب ملوكها عجم

أوجه الاختلاف

أما أوجه الاختلاف بين الشاعرين ، فهي كثيرة ، وان كانت أقل عددا من عناصر التشابه . ويمكننا ايجازها وحصرها في النقاط التالية :

= 1 =

عند ابن هانيء :

ميله الى حياة اللهو وامتاع النفس بلذائذ الحياة واتلاف المال في سبيل ذلك .

وعند المتنبي :

ميله الى حياة المجد والتقشف وجمع المال .

= 2 =

عند ابن هانيء :

طموح محدود ، وآمال تحققت منذ صار الشاعر الاول للمعز .

وعند المتنبي :

طموح جارف ، وفشل في تحقيق آماله .

= 3 =

عند ابن هانيء :

أفكار فلسفية غامضة ، ومعان صعبة وعواطف عادية في بعض أشعاره ، الا ما اتصل منها بالعقيدة الشيعية ودولة المعز .

وعند المتنبي :

أفكار عميقة ، ومعان واضحة ، وعواطف حارة في أكثر شعره .

= 4 =

عند ابن هانيء :

شعور بالرضى والاطمئنان لما وصل اليه في حياته، وعدم الشكوى والتبرم من الحياة والناس .

وعند المتنبي :

تمرد على الاوضاع ، وشعور دائم بالمرارة وسوء الحظ ، وشكوى من الزمان وسخط عنيف على الناس والمجتمع .

= 5 =

عند ابن هانيء :

نظرة عادلة للحياة ، مع عدم السخط على المجتمع او الشعور بمركب التفوق .

وعند المتنبي :

نظرة عميقة للحياة ، وشعور جارف بالتفوق وتحقير شديد للبشر كافة .

= 6 =

ابن هانيء :

بحث ابن هانيء عن المثل الاعلى في شخص آخر فوجده في المعز فاكتفى به ، وعاش يمجده ويعظمه بحرارة واخلاص ، لما بينهما من رابطة دينية مقدسة .

والمتنبي :

كان مثله الاعلى منحصرا في ذاته ، لهذا لم يرضه أحد . ورغم تقديره العظيم لسيف الدولة فانه لم يكن يراه الا شبيها بمثله الاعلى وليس هو بالذات .

= 7 =

عند ابن هانيء :

ميل في بعض أشعاره الى التكلف والصنعة رغم مواهبه الشعرية العالية ، وكثرة تفصيله للمعاني الى حد الاطناب والتكرار .

وعند المتنبي :

غلبة الطبع والموهبة على أشعاره ، ومقدرة على حشو الالفاظ القليلة بالمعاني الكبيرة والعميقة مع الايجاز . مع وجود عيوب ابن هانيء في بعض أشعاره لا سيما التصنع والحشو والمبالغة .

= 8 =

عند ابن هانيء :

الحكمة منتشرة في شعره ، ولكنها ضعيفة غالبا ، الا ما جاء في الرثاء فهي أكثر نجاحا .

وعند المتنبي :

الحكمة كثيرة في أشعاره وهي قوية المعنى والتأثير. وقد جرت مجرى الامثال ، واليها يعود شطر كبير من شهرة المتنبي ومكانته الادبية .

= 9 =

ابن هانيء :

يستمد قوته الشعرية من عقيدته الاسماعيلية وهو دون ذلك شاعرية فيما عداها .

والمتنبي :

قوته الشعرية مستمدة من ذاته ـ وما يملأ نفسه من طموح وآمال كبار .

خاتمـــة

هذا مجمل القول في شاعرين عظيمين عاشا في عصر واحد وظروف سياسية متشابهة ، وان اختلفت حياتهما الخاصة ومعطيات هذه الحياة عند كل منهما .

ولئن كان المتنبي قد ظفر باعجاب العالم واهتمام النقاد والباحثين منذ الف سنة الى اليوم – ولا يزال – حتى احتفل بالفيته مرتين (5) – فان ابن هانيء جدير هو الآخر بنفس الاحتفال (6) والعناية والاهتمام من النقاد والدارسين ، لا لانـــه شاعر عظيم وند للمتنبي فحسب بل ولان ديوانه يمثل حلقة هامة جدا من تاريخ المغرب العربي سياسيا وأدبيا ودينيا .

وعسى أن نرى أدباء تونس بل المغـــرب العربي كافة يحتفلون قريبا بالفية شاعرهم الخالد : (ابن هانيء) المشهور أيضا بـ (متنبي المغرب) .

---

(5) كانت الاولى عام 1936 وأما الثانية 1965 فهي بصحف تونس وبعض البلاد العربية الاخرى .
(6) مرت الآن ألف سنة قمرية على وفاة ابن هاني.– كما مرت ألف سنة شمسية على ميلاده .

ان اللغة لا تقبل الازدواج ، والامة التي تتخذ لها لغتين قوميتين (وهذا هو معنى الازدواج) احداهما قوية غنية سيدة في قومها وفي العالم ، والثانية ضعيفة تكافح من أجل البقاء يجهلها الاكثرون ويحتقرها الكثيرون ، هي أمة تحكم بنفسها على لغتها .

ان الازدواج لا يكون الا بعد تحرير اللغة المضطهدة واحلالها المكان اللائق بها ، عند ذلك يمكن مزاوجتهـــا بلغـــة تستطيع مساعدتها ولكنها لا تستطيـــع منافستها .

والتعريب عقدة لا مشكلة .

أما ان نناقش مشاكل اللغة ووسائل تطورها ، فهذا مظهر من مظاهـــر الحيوية والتطلع والغيرة على لغتنا ، وأما ان نناقش التعريب في التعليم والادارة والحضارة باعتباره مشكلة فذلك مظهر عقدة خلفها في نفوسنا الاستعمار الفكري واللغـــوي .

وهل هنالك عقدة أعقد من أن يترآى الى أذهاننا ، بله أن نفكر أو نعتقد ، في التخلي عن لغتنا التي هي جزء منا ومقوم لذاتنا لحساب لغة أخرى مهما تكن قوتها وفعاليتها وصلاحيتها ؟ وهل هناك عقدة أعقد من أن نناقش في صلاحية العربية للتعبير والتعليم والتفكير والادارة ؟ وهل هناك عقدة أعقد من أن نجعل من تعريب التعليم والادارة مشكلة نتغلب على جميع مشاكلنا الا هذه المشكلة فاننا لا نستطيع التغلب عليها .

ان القضية في نظري قضية عقدة لا تقل عن العقدة النفسية التي تصيب الشخص فيتوهم المرض أو العجز أو الموت ، ويحاول الطبيب أن يقنعه بصحته وقدرته وبعده عن الموت ، ويشير عليه بأدوية تعيد اليه اعتباره ، ولكنه يضيف الى اتهام نفسه اتهام الطبيب بالجهل والقصد السيء ، ومن ثم تنضاف عقدة جديدة الى عقدته السابقة وهكذا تتضاعف العقد كما يتضاعف حجم كرة الثلج كلما تدحرجت في سهل مثلوج .

عبـد الكريـم غـلاب